



رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية في مواجهة التعصب والتطرف والطائفية

إعداد

الدكتور زكرياء السرتي

المدير العام لشبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات - المغرب

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصول والمخاض

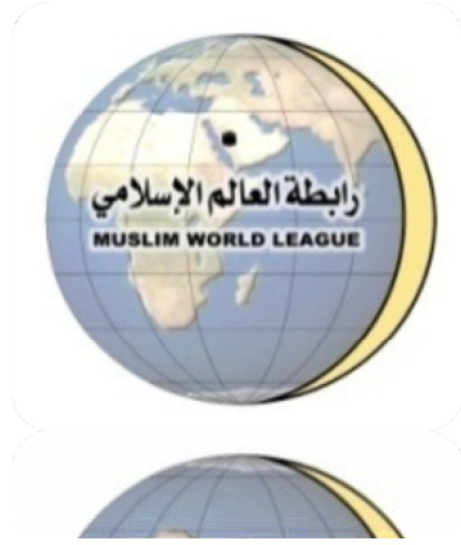
الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤-٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨-٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م



رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ - الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تليكس: ٥٤٠٠٠٩ و ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه

تقديم:

لا شك في أن مسألة الثقافة الإسلامية تحظى باهتمام بالغ من العلماء والباحثين والخبراء منذ مرحلة التصادم الحضاري بين الأمة الإسلامية وطلائع الاستعمار الغربي، وتجدد الاهتمام مع ازدياد حركات التحرر من الهيمنة الاستعمارية وما نجم عنها من إعلانات الاستقلال وبناء الدولة الوطنية تبعاً في بلداننا العربية والإسلامية.

ولم تكن أزمت «الحرب الباردة» وما تلاها من دعوات وتيارات ثقافية، أقل تأثيراً في صياغة أسئلة جديدة أمام مجتمعاتنا الإسلامية، مما استوجب بروز الأبعاد المركبة لثقافتنا الإسلامية المعاصرة، ورسم تحدياتها التي لم تبق في إطارها العولمي الخارجي، بل تعززت بتحديات داخلية تمثلت في نمو وتطور الاتجاهات الفكرية والثقافية المستندة إلى أسس ومقومات طائفية ومذهبية، اتجهت من جهةٍ إلى تعزيز مظاهر التعصب والانغلاق والعنف، وسعت من جهةٍ ثانية إلى إضعاف المقومات الثقافية للأمة الإسلامية (التنوع والتعايش والتسامح) التي ضمنت لها تحقيق مقاصد الوجود والاستمرار والقوة.

والهزات والحروب والثورات التي زلزلت مجتمعاتنا في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحالي، أدت إلى إشكاليات كبرى يجب التعامل معها بمستوياتٍ عليا من الجدية والحزم والعزم، وبمقاربات فكرية وتربوية وثقافية شاملة لا تستثني بُعداً من الأبعاد، ولا تهمل بُنداً من بنود استراتيجية النهوض والإنقاذ.

من بين تلك الإشكاليات: إشكالية تأهيل ثقافتنا الإسلامية لمواجهة التحديات والمخاطر التي صارت تتهدد وجودنا الحضاري في زمن العولمة وتكنولوجيا الأقمار الاصطناعية المحيطة بالكوكب الأرضي من كل الجهات.

فإشكالية تأهيل ثقافتنا وتقوية شبكاتها وحواملها التعليمية والإعلامية والاجتماعية؛ ستظل المسألة المستعصية على كل مبادرة إن لم نعتمد على نوعٍ من المقاربات يتميز بالشمول والتنوع والانسجام والتكامل.

أسباب اختيار الموضوع:

ولمقاربة جوانب هذه الإشكالية الثقافية؛ اتخذنا لورقتنا عنوان: «الثقافة الإسلامية في مواجهة التعصب والتطرف والطائفية»، إدراكاً منا للعناصر والمكونات التي تستلزم إعمال النظر والتمحيص، ومنها:

- ❖ استمرار الوضع المضطرب سياسياً وثقافياً واجتماعياً في بلداننا العربية إثر مجموع التحولات والمستجدات السياسية والأمنية التي أفرزت كثيراً من الأوضاع المشوهة، وأظهرت الحاجة الملحة لمعالجة ثقافية شاملة قادرة على استئصال ما يتعين إزالته، وتدعيم ما ينبغي استمراره.
- ❖ ضعف استثمار الأسس والمقومات الثقافية الأصيلة في تراثنا الحضاري الإسلامي ضمن مسارٍ جماعي فاعل ومؤثر، خاصةً ونحن نعيش في مرحلةٍ شديدة الخطورة داخلياً وخارجياً، وقد أدى وقوفنا عند هذه الحقيقة إلى توخي كشف جملة من الأسس الصالحة لتعزيز ثقافتنا الإسلامية المعاصرة.
- ❖ ضعف التنسيق بين مختلف الفاعلين في الشأن الثقافي أفراداً وجماعات ومؤسسات وحكومات، وهو ما يدفعنا إلى معالجة إشكالتنا الثقافية ضمن رؤيةٍ تهدف إلى تعزيز التكامل والتعاون والتنسيق.
- ❖ وجود مقترحات علمية ومبادرات وخطط استراتيجية لمؤسسات

ومنظمات؛ لم تُنجز بعد؛ مما دفعنا إلى التفكير في عوائق التنزيل الواقعي والفعلي بما يحفظ هويتنا الثقافية من عوامل التخريب الداخلية والخارجية. ❖ الإسهام في صياغة البدائل الثقافية التي تحفظ لأمتنا مقاصد وجودها واستمراريتها وقدرتها على أداء رسالتها الخالدة في الشهادة بالقسط، وبث معاني الرحمة في القلوب والعقول، وحماية حقوق الإنسان.

خطة البحث:

ولتحقيق هذه الأهداف المذكورة أعلاه، نقترح تصميمًا مخصوصًا لورقتنا البحثية وفق ما يلي:

١- المبحث الأول: ضرورة تجديد الثقافة الإسلامية.

- المطلب الأول: الثقافة وتحدي التعريف.
- المطلب الثاني: تجديد الثقافة، الأسباب والدواعي.
- المطلب الثالث: الثقافة الإسلامية بين مطلب الوحدة ومطلب حفظ التنوع.

٢- المبحث الثاني: ثقافتنا في مواجهة التعصب والتطرف والطائفية.

- المطلب الأول: أسباب التعصب والتطرف والطائفية.
- المطلب الثاني: سبل وآليات مواجهة التيارات الثقافية المنحرفة.

٣- المبحث الثالث: في ضوابط الحياة الأسرية.

- المطلب الأول: الضابط التنويري.
- المطلب الثاني: الضابط التوجيهي.
- المطلب الثالث: الضابط التدبيري.

٤- خاتمة: نتائج وتوصيات

المبحث الأول ضرورة تجديد الثقافة الإسلامية

المطلب الأول: الثقافة وتحدي التعريف

من العبث ما نجده لدى كثير من الكتاب والباحثين الذين يتكلفون جهوداً مُضنيةً لربط مصطلح الثقافة بالدلالات اللغوية العربية؛ انطلاقاً من معاجم العربية القديمة (لسان العرب، القاموس المحيط، الصحاح).

«ذلك لأن كلمة «مثقّف» لا ترتبط في الثقافة العربية بمرجعية محددة؛ وأكثر من ذلك فلفظ «مثقّف» في اللغة العربية لا يعدو أن يكون في الحقيقة مجرد صيغة نحوية قياسية: اسم مفعول من الفعل ثقّف، ولم ترد هذه الصيغة في النصوص العربية إلا نادراً جداً، والنادر لا حكم له كما يقال، وبالتالي فهو لا يشكل مرجعية»^(١).

ارتبطت الثقافة بالمعاني المتداولة اليوم، بسياق التحولات الاجتماعية والسياسية الغربية، وبخاصة الثورة الفرنسية وما نتج عنها من مواقف وصراعات، فصار الحديث عن فئة المثقفين الذين يتخذون مواقف من الشأن العام، ويمكن أن نسوق بعضاً من التعاريف التي تشهد على التعدد في الدلالات الاصطلاحية للفظ الثقافة، كما تشهد على ما تحمله الثقافة في ثناياها من آثار الصراعات الاجتماعية والسياسية والدينية التي مرت بها المجتمعات الغربية عامة، والأوروبية خاصة.

من بين التعاريف الكثيرة نسوق ما يلي:

(١) محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ص ٩.

- ✓ جون لوك J.Locke الثقافة هي: «تهذيب العقل أو تهذيب الإنسان»^(١).
- ✓ «مجموعة عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات»^(٢).
- ✓ المجمع اللغوي: «جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحدُّقُّ بها»^(٣).
- ✓ «مجموعة الأفكار والمُثل والمعتقدات والعادات والتقاليد والمهارات وطرق التفكير ووسائل الاتصال والانتقال وطبيعة المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الواحد»^(٤).
- ✓ في الفكر الإسلامي: «التراث الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به الأمة ويُنسب إليها، ويتلقاه الفرد منذ ميلاده وحتى وفاته»^(٥).

ثم إننا نجد تعاريف أخرى تهتم الثقافة الإسلامية، نذكر منها:

- ✓ «معرفة مقومات الأمة الإسلامية العامة بتفاعلاتها في الماضي والحاضر، من دين، ولغة، وتاريخ، وحضارة، وقيم، وأهداف مشتركة»^(٦).

(١) عبد الحليم عويس: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، ص ١٦.

(٢) قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، ص ٣٣-٣٤.

(٣) رجب سعيد شهوان وآخرون: دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ٨.

(٤) رجب سعيد شهوان وآخرون: دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ٨.

(٥) دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ٨.

(٦) دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ١١-١٢.

✓ «معرفة التحديات المعاصرة المتعلقة بمقومات الأمة الإسلامية ومقومات الدين الإسلامي»^(١).

ونختصر ملاحظتنا على ما أوردناه من أمثلة في مجال الاصطلاح، فيما نسمّيه: عملية استنساخ للتعريف المقتبسة من التراث الغربي، وإن كانت ثمة محاولات لإعادة الصياغة بإدخال المقومات الدينية الإسلامية.

لهذا نرى ضرورة إخراج مشمولات الدين الإسلامي - بما هو من عقائد وأوامر ونواهٍ وأحكام شرعية - من المجال الدلالي الاصطلاحي الذي اعتاد كثير من الباحثين والعلماء تخصيصه للثقافة؛ فالدين الإسلامي هو الحق الذي لا يقبل التغيير ولا التبديل، أما التصورات والمواقف والعادات وأنماط السلوك فهي تدخل تحت مسمى المعطيات النسبية التي تتغير في المجال التداولي للأمم والشعوب مع تسلسل الزمان وتبدل المكان وضروب التفاعل الاجتماعي والسياسي والقيمي^(٢).

(١) دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ١٢.

(٢) في الفكر الإسلامي منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، نجد عدداً كبيراً من الكتب والدراسات التي سارت في هذا المسار الخاطئ الذي يُدرج العقيدة الإسلامية وأحكام الشريعة الإسلامية ضمن مجال الثقافة، فيختلط على المسلمين ما هو من الوحي وما هو من أعمال الأفراد والجماعات، ونقدم هنا نموذجين اثنين: كتاب «المحات في الثقافة الإسلامية» لمؤلفه عمر عودة الخطيب، (الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، مؤسسة الرسالة بيروت)، والثاني: كتاب «محاضرات في الثقافة الإسلامية» لمؤلفه نوح علي سلمان، وسامي الصالح (الطبعة الثالثة، ١٩٩٦، منشورات مديرية الإفتاء في القوات المسلحة الأردنية).

المطلب الثاني: تجديد الثقافة: الأسباب والدواعي

نقصد بتجديد الثقافة: تلك العملية المزدوجة التي تتم من خلال مستويين متكاملين متزامنين:

- ✓ الأول: تجديد العلاقة بين مجموع القيم والمواقف والتصورات والتمثلات وأنماط السلوك من جهة، وبين المرجعية القرآنية النبوية والنموذج الصحابي الراشد من جهة أخرى، ويضمن هذا التجديد تصفيةً دائمة مستمرة للمضمون الثقافي الذي يتداوله الأفراد والجماعات في مجتمعاتنا المعاصرة عبر وسائط وكيفيات متعددة.
- ✓ الثاني: تجديد العلاقة بين ثقافتنا الإسلامية و«معطيات العصر العلمية والفنية والرمزية»، بما يضمن مواكبةً دائمةً للمتغيرات التي تتيح لنا قدرةً على فهم الأنساق الثقافية في العالم، ورسم استراتيجيات الحوار الثقافي ومخرجاته المتمثلة في التفاعل والتأثير والتوجيه.

أما الأسباب والدواعي التي نراها فاعلة ومؤثرة في مسار التجديد المطلوب فهي كثيرة متداخلة، منها:

- ✓ تأثير التجزئة الاستعمارية: فقد أضحى واضحاً ما أدى إليه التقسيم الاستعماري للبلاد الإسلامية، والعبث بالموارد والثروات الطبيعية والبشرية؛ من آثارٍ خطيرة مسّت جملةً من القطاعات والمجالات؛ ومنها المجال الثقافي والقيمي؛ إذ تم ترسيخ مفهوم الدولة الوطنية مقابل الدولة الإسلامية الجامعة، ومفهوم المجتمع بدل الأمة.
- ✓ تأثيرات العولمة: إذ ازداد الأمر فداحة مع الثورة الاتصالية والتكنولوجية، وما رافقها من تمدد النظام العالمي بعد الحرب الباردة،

وتطور قدرته الفائقة على اكتساح المجتمعات والنظم بسيل جارف من المعارف والقيم والسلع وغيرها، مما جعل سؤال النظر في كياننا الثقافي والحضاري مطلباً مُلِحاً وعاجلاً.

✓ انهيار منظومة القيم: وكان من جملة التأثيرات السلبية للعولمة: ما نشهده اليوم من انهيار منظومة القيم لدى شرائح واسعة من الشباب، ونعني مجموع القيم الدينية والأخلاقية التي ظلت على مدى قرون جزءاً أصيلاً من التربية الاجتماعية للفرد المسلم عبر القنوات المتنوعة.

✓ تفكُّك البناء الأسري: فلا يخفى على عاقل أن الأسرة محضنٌ استراتيجيٌّ لتثبيت المضمون الثقافي للأمم والشعوب، لكننا شهدنا تأثير الأسرة بنتائج النظام العولمي الكاسح، وتضاؤل تأثيرها في عملية التنشئة الاجتماعية للأبناء بما يحفظ لديهم الهوية والانتماء.

✓ ظهور التشوهات الثقافية: وهي كثيرة في حياتنا المعاصرة؛ منها ما يتصل بالتمثلات والتعبيرات اللغوية وأنماط اللباس، ومنها ما يرجع إلى المعاملات والأنواع السلوكية.

✓ غياب التنسيق والتكامل بين المشاريع والبرامج التي تضعها المؤسسات الحكومية والأهلية والمدنية في مجالات حفظ وتنمية الهوية والتراث الثقافيين.

المطلب الثالث: الثقافة الإسلامية بين مطلب الوحدة ومطلب حفظ التنوع

إن التأكيد على أهمية تجديد الثقافة الإسلامية وضرورته في هذه المرحلة التاريخية؛ يستلزم التأكيد أيضاً على أن مهمتنا الاستراتيجية - أفراداً ومنظمات وحكومات - هي أن نستحضر السعي إلى تحقيق مطلبين اثنين:

✓ الأول: الوحدة الثقافية: يتمثل في الخروج من دائرة الثقافات القطرية التي رسّختها عقود من «الدولة الوطنية»؛ إلى دائرة الثقافة الإسلامية الموحدة والممتدة عبر البلاد الإسلامية الواسعة، المتطلعة إلى الأفق العالمي الأوسع.

✓ الثاني: التنوع الثقافي: فالتوجه الاستراتيجي لاستعادة الوحدة الجامعة للثقافة الإسلامية بعد تمزُّق نسيجها بفعل العوامل الاستعمارية والعولمية، لا يعني إدخال ثقافتنا ضمن نفق الأحادية الثقافية، بل يتطلب الأمر تنميةً دائمةً لخصائص التنوع والغنى والثراء؛ سواء في مستوى المصادر الثقافية؛ أو مستوى الكيفيات والأساليب.

المبحث الثاني

ثقافتنا في مواجهة التعصب والتطرف والطائفية

المطلب الأول: أسباب التعصب والتطرف والطائفية

تواجه ثقافتنا الإسلامية اليوم أخطر التيارات والاتجاهات الثقافية المشوهة والمنحرفة، وهي (التعصب المذهبي)^(١)، والتطرف الديني والسياسي، والطائفية المقيتة)، مما يستدعي تجديد النظر والعمل في المجال الثقافي والتربوي؛ حيث تُصنع الشخصية وتُهذب وتُصقل بما يخدم تطلعات الأمة وتحدياتها المعاصرة. ونود أن نشير بإيجازٍ إلى أسباب ظهور هذه الأنماط الثقافية المنحرفة في فضاءنا العربي والإسلامي، وهي التي ازدادت بروزاً مع تغير نظام الحكم في العراق، و«ثورات الربيع العربي» في كل من تونس وسوريا وليبيا ومصر.

تتمثل أسباب التعصب المذهبي - حسب أحد الباحثين -^(٢) في العناصر

التالية:

(١) التعصب: من العصبية، وهي أن يدعو الرجل إلى نصرته عصبته والتألب معهم على من يناوئهم؛ ظالمين كانوا أو مظلومين. (لسان اللسان، تهذيب لسان العرب، ٢/ ١٨٠، مادة (عصب)، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، إشراف الأستاذ علي مهنا)، والمذهبي نسبة إلى المذهب، وهو المعتقد الذي يذهب إليه. (لسان اللسان، مادة: (ذهب)، ١/ ٤٥٢)، والتعصب المذهبي اصطلاحاً: المغالاة في الانتصار للرأي الفقهي أو للمذهب الفقهي دون دليل. (تاريخ المذاهب الإسلامية، الشيخ محمد أبو زهرة، ١/ ٧-٨).

(٢) حسن الجوجو: التعصب المذهبي والتطرف الديني وأثرهما على الدعوة الإسلامية، بحث مقدم لمؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر، ٧-٨ من ربيع الأول ١٤٢٦ هـ، ١٦-١٧ من أبريل ٢٠٠٥ م، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين.

- ✓ التقليد.
- ✓ تدوين المذاهب الإسلامية.
- ✓ ضعف الثقة بالنفس والتهيب من الاجتهاد.
- ✓ إقفال باب الاجتهاد.
- ✓ وقد ذكر الإمام أبو زهرة رحمته الله أسباباً أخرى، وهي:
- ✓ اختلاف الرغبات والشهوات والأمزجة.
- ✓ اختلاف التفكير بين الناس واختلاف مداركهم.
- ✓ الرياسة وحب السلطان.

- أما أسباب التطرف الديني، فقد حددها الباحث نفسه في العناصر التالية^(١):
- ✓ الأخذ بالشعارات من الإسلام أكثر من أخذ العلم الحق من الكتاب والسنة.
 - ✓ غياب فقه الموازنات والألويات.
 - ✓ عدم وجود منهج يحدد المعالم والمراحل والأهداف والوسائل.
 - ✓ الغلو والتشدد في الدين.
 - ✓ الشعور بالظلم والاستبداد.
 - ✓ عدااء بعض غير المسلمين للإسلام والمسلمين.

(١) المرجع نفسه.

المطلب الثاني: سبل وآليات مواجهة الاتجاهات الثقافية المنحرفة

الحديث عن الآليات والسبل الكفيلة بحفظ ثقافتنا الإسلامية، وتأهيل قدرتها على التأثير والصمود في وجه المخاطر المحدقة بالهوية والكيان المعنوي الجماعي للأمة، يقتضي بياناً ما يتعين الاهتمام به بشكل رئيسٍ وعاجلٍ.

فلا يمكن الانخراط في معركة حفظ الهوية الثقافية وتأهيل قدرتها في السياق العالمي؛ دون المرور بمسار التجديد الذي يستحضر المقومات الأصيلة دون أن يُغفل التحديات الحاضرة والمستقبلية، و«التجديد المقصود ليس بدعة ولا تغييراً لفطرة الدين؛ بل هو تطوير وتحديث بمشاركة أهل العلم الشرعي وأهل العلوم الدنيوية - وهو ما يحصل اليوم ولكن في نطاقٍ ضيقٍ وتؤدة لا توازي تسارع المستجدات - وكذا بإشراك أهل الحُكم لوضع التجديد موضع التطبيق العملي»^(١).

هناك دراسات وأبحاث ومؤتمرات كثيرة تناولت سبل مواجهة الظواهر الثقافية والاجتماعية المشوهة، (وفي القلب منها: ظواهر التعصب المذهبي والتطرف الديني والعنف والإرهاب والطائفية)، ونحن بحاجة أكيدة إلى الاهتمام بنتائجها وتوصياتها ضمن سياقٍ تكامليٍ مندمجٍ يستحضر مشاركة كل المؤسسات الاجتماعية - الأهلية والمدنية - والمؤسسات السياسية والإعلامية، والنظم القانونية، وغير ذلك.

(١) بهيج ملا حويش: المجتمع المسلم ورؤى التجديد والإصلاح، بحث مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر: المجتمع المسلم.. الثواب والمتغيرات، ٢٠-٢١ من أكتوبر ٢٠١٢.

ولا يمكن هنا أن نعرض لجميع الأدوار الخاصة بكل عناصر المنظومة القانونية والإعلامية والسياسية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية، وإنما سنقتصر على بيان الإمكانيات التي تتيحها الحياة الأسرية في دعم ثقافتنا الإسلامية وصونها من الظواهر والتيارات المنحرفة والهدامة.

المبحث الثالث: ضوابط الحياة الأسرية

لا يكاد يختلف الناس عبر الأزمنة المتعاقبة والأمكنة والثقافات المتنوعة؛ في طبيعة الأسرة الاجتماعية وكونها خليةً متعددة الوظائف والأبعاد؛ فهي ذات وظيفة تناسلية تمكّن من استمرار الجنس البشري، وهي ذات وظيفة قيّمة تجعل القيم والأعراف والمعتقدات قادرةً على الصمود ومقاومة رياح التبديل والتغيير، وهي خلية ذات وظيفة تأهيلية تمكّن أعضاء الجماعة البشرية من الاندماج في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ولا يخفى ما تؤديه الأسرة من وظائف، وما تحمله طبيعتها من عناصر التمايز والاختلاف داخل محيط المجتمع الواحد أو بين مجتمع وآخر، ويعود هذا التمايز إلى تنوع العقائد الدينية والتصورات الفلسفية والإيديولوجية التي تحتكم إليها كل جماعة بشرية وتصدر عنها في مساراتها السلوكية واختياراتها السياسية والاجتماعية.

ويعيننا هنا أن نتناول وضع الأسرة في المجتمعات المسلمة التي تواجه حرباً ثقافية طاحنة دون أن تجد الميزان الذي يعيد لها الإحساس بوزنها الذاتي المفقود، ويخرجها عن وصف العُثائية والوهن والجمود، ويعيننا أيضاً أن نبحث في الإمكانيات والآفاق التي تتيحها الحياة الأسرية السليمة لمجتمعاتنا الإسلامية؛ إذ تمنحها فرصة الانبعاث من مَوَاتٍ، والانطلاق إلى حياة.

إن بحثنا في موضوع ضوابط الحياة الأسرية السعيدة؛ يحفزنا على النظر بعمقٍ إلى مستقبل ثقافتنا الذي تتهدده عوامل التخريب والتدمير والتشويه، عبر وسائل ووسائط متنوعة.

كما ينبغي أن ننظر إلى أفق عملي تطبيقي، وأن نستند إلى منحى تدييري يعصمنا - بفضل الله تعالى - من التيه في سبل الفكر المجرد، ويقربنا من الظفر بمنهاج العمل الصالح الموسوم بالقبول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

المطلب الأول: الضابط التنويري

تصنع الأسرة المسلمة حياتها السعيدة في طلب النور الرباني الذي يحيي به الله من شاء من عباده، نعمة منه سبحانه ورحمة وفضلاً، وكثير من المسلمين يعمهم الجهل بوجود هذا النور والبحث عن مصادره ومطالعه.

فقد أخبرنا المولى سبحانه بفضلته على عباده المتبتلين في محراب التذلل والافتقار، إذ يحييهم حياة إيمانية طيبة: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي تفسير القرطبي^(١): «قيل: معناه: كان ميتاً حين كان نطفة، فأحييناه بنفخ الروح فيه؛ حكاه ابن بحر، وقال ابن عباس: أو من كان كافراً فهديناه. نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل (...) وقيل: كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم، وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة: وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور وإن امرء لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور»

والنور عبارة عن الهدى والإيمان، وقال الحسن: القرآن، وقيل: الحكمة. وقيل: هو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، وقوله: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْيَسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

(١) تفسير القرطبي ٩/١٨-١٩.

فتنوير الحياة الأسرية يتم بالسعي إلى الهدى والإيمان والعلم والحكمة، وهي أسرار مودعة في كتاب الله عز وجل، وتكون رعاية الأبوين لفطرة الأبناء وسلامتها بإمدادها بمفاتيح هذا النور الرباني، وإبعادها عن المغاليق التي تؤدي إلى الظلمات، وهي ظلمات الجهل والضلال والظلم والبغي والعنف والتطرف.

المطلب الثاني: الضابط التوجيهي

الأسرة سفينة تمخر عباب المجتمع، تصارع الأمواج، وتكابد الرياح، وتبحث عن المرفأ الآمن، وهي في هذا السبيل تحتاج إلى رُبانٍ يُحسن القيادة، ويُنقن التوجيه، ويرقى بالمسؤولية إلى أعلى الدرجات، وعلى قدر عزيمة الربان وإرادته وعلمه؛ يكون سير السفينة واطمئنان أهلها.

وهكذا يكون شأن الأسرة وهي تتوسط شدة المجتمع وتتقدم بين صفوفه، وكذا شأن قيادتها التي تبحث عن وسائل وآليات وصور التوجيه لأفراد الأسرة، توجيهاً يرقى بهم إلى مستوى الفاعلية والجِدوى والعمل الصالح الذي ينفع المجتمع المسلم، ويشيع فيه معاني الخير والنبل والمروءة وحسن الخلق.

فالأسرة محضنٌ يتلقى فيه الكبيرُ والصغيرُ معاني الإيمان والعمل الصالح التي تفتح لهما باب الرشد والحكمة، فإن تخلت الأسرة المسلمة عن هذا المعنى العظيم؛ انفتحت مسالك الضياع والتيه والخراب أمام الأمة كلها، وهذا ما نشهده اليوم في بلداننا التي داهمتها التيارات الثقافية المنحرفة، ولم تعد الأسرة قادرةً على التفاعل السريع والناجع مع آثارها السلبية؛ لأنها بكل بساطة لم تستعد الاستعداد المبكر.

إن شقاء الأمة الإسلامية نابع من تضافر عدة عوامل؛ أبرزها: تضييع أمانة المسؤولية الشاملة، وتخلي الأسرة عن واجب احتضان أعضائها وتربيتهم وتوجيههم بما يلائم القيم والمعتقدات السليمة، وما تتطلع إليه أمتنا من آفاق، وما تواجهه من تحديات.

المطلب الثالث: الضابط التدبيري

نقصد بالتدبير: قدرة قائد الأسرة (الأب والأم) على تأهيل الأبناء وتدريبهم على المهارات والكفايات العملية التي تفتح لهم باب التطوير الدائب والتكوين المستمر، باعتبار الأسرة خلية وجب أن تخضع لنظام خاص يسهر على تصريف طاقات أعضائها وقدراتهم، وتنظيم آرائهم وأعمالهم، وتدبير مظاهر الخلاف بينهم.

بيد أن كثيراً من الأسر في مجتمعاتنا؛ تفتقر غالباً إلى هذا الضابط الذي يجعل الأسرة نسيجاً من العلاقات والمسؤوليات، فيضييع النور الإيماني إن وُجد، ولا ينفع التوجيه إن تمَّ.

إن العشوائية في الفكر، والاضطراب في الشخصية، والتردد في اتخاذ القرار؛ مظاهر لأزمة غياب حسن التدبير وضعف التربية في المؤسسات المجتمعية: الأسرة والمدرسة والإعلام، ولأن الفرد يتأثر بالمثل أكثر من المقال؛ فإن فضاء الأسرة يعد الأقدر على صياغة شخصيته وفق هذا الضابط التدبيري، صياغة تظل حلقة تتلوها حلقات أخرى، تعليمية وإعلامية واقتصادية.

ثلاثية متكاملة من الضوابط يتعين تفعيلها في الفضاء الأسري ليتحقق المبتغى؛ وهو صناعة الحياة السعيدة، ومن ثم تأمين جزء من كياننا الثقافي ضد

العواصف التي تجتاحه من كل جانب، والمُضَيِّ في تأهيل شخصية المسلم تأهيلاً شاملاً يمكنه من المفاضلة والتمييز بين الأفكار والتصورات التي تُعرض عليه في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي بشكل يومي، فإن وقع الخلل - وقد وقع - فإنما يعود إلى إهمال عنصر من عناصر تلك الثلاثية المتكاملة.

خاتمة: نتائج وتوصيات

تبين لنا أن ثقافتنا الإسلامية تحتاج لتجديد شامل لا يستثني أية مقاربة؛ سواء أكانت فكرية أو تربوية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أمنية، وستظل تلك الحاجة في تجدد مستمر ما دامت التحولات العالمية لا تهدأ، وما دامت الصراعات والنزاعات السياسية والاجتماعية مشتعلة في مناطق من جغرافية عالمنا الإسلامي.

نتحدث في الخاتمة عن بناء البدائل الثقافية، لا عن الخيار الأحادي الذي لا يقبل المناقشة ولا التعديل، فمفهوم البدائل الثقافية يضمن لنا تحقيق جملة من المقومات والخصائص، منها:

- أولاً: استخدام قدراتنا الذاتية في التفكير العلمي والتخطيط الاستراتيجي.
- ثانياً: التفكير بشكل مستمر ودائم، لا أثناء حدوث الأزمات المفاجئة.
- ثالثاً: القدرة على تحديد مسارات متنوعة في معالجة ظاهرة أو مسألة ثقافية معينة.

هكذا يكون بمقدور مؤسساتنا الثقافية والتربوية والسياسية والإعلامية وغيرها أن تنخرط في مسار جماعي لبناء البدائل الثقافية الممكنة، على المدى المتوسط والبعيد.

أما توصيات ورقتنا البحثية فهي كما يلي:

- من الأولويات المُلحة لحماية وتطوير ثقافتنا الإسلامية: تأسيس المسار الثقافي الجماعي الذي لا تشرف عليه الحكومات، بل يتعين أن تنهض بمهمة الإشراف عليه مؤسساتٌ أكاديمية متخصصة، بتشاور واسع.
 - ضرورة تقويم الجهود والتجارب والمشاريع المحلية والدولية في مجال مقاومة ومعالجة التيارات الثقافية المتطرفة والمنحرفة، مع اعتبار الفوارق بين الشعوب والجماعات البشرية، ولهذا نوصي بعقد مؤتمرات دولية تخصص لدراسة هذه التجارب، وما أفضت إليه من نتائج.
 - بناء البدائل الثقافية في سياق التخطيط الاستراتيجي لمواجهة الآفات والمخاطر، وليس ذلك عمليةً سهلةً؛ لوجود عوامل متعددة متداخلة؛ فنحن نعيش في سياق عالم مفتوح، متعدد المراكز والقوى، متنوع الثقافات، ولهذا نوصي برفع مستوى الاهتمام بالشأن الثقافي في المؤسسات الإعلامية - التقليدية والجديدة - بما يتيح متابعة حثيثة للتطورات والمستجدات المتعلقة بهويتنا الثقافية.
- والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، سنة ١٩٨٧ م، دار الفكر العربي - بيروت.
- بهيج ملا حويش: المجتمع المسلم ورؤى التجديد والإصلاح، بحث مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر: المجتمع المسلم.. الثوابت والمتغيرات، ٢٠-٢١ أكتوبر ٢٠١٢، مكة المكرمة.
- حسن الجوجو: التعصب المذهبي والتطرف الديني وأثرهما على الدعوة الإسلامية، بحث مقدم لمؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر، ٧-٨ ربيع الأول ١٤٢٦ هـ، ١٦-١٧ أبريل ٢٠٠٥ م، الجامعة الإسلامية بغزة - كلية أصول الدين.
- رجب سعيد شهوان وآخرون: دراسات في الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، مكتبة الفلاح - الكويت.
- عبد الحلیم عويس: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، طبعة عام ١٣٩٩ هـ النادي الأدبي بالرياض.
- عمر عودة الخطيب: لمحات في الثقافة الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٩٧٩، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م، دار العلم للملايين - بيروت.

- محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين بن منطور: لسان اللسان، تهذيب لسان العرب، إشراف الأستاذ علي مهنا، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، الطبعة الثانية ٢٠٠٠، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت.
- نوح علي سلمان وسامي الصالح: محاضرات في الثقافة الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٩٩٦، منشورات مديرية الإفتاء في القوات المسلحة الأردنية - الأردن.